شعارات الحــرب وحرب الشعــارات

كلنا ندعو إلى السلام ، وكلنا نوقد نار الحرب .
نرفع شعاراً ثم نعمل لنقيضه .

كنت حديث العهد بالسياسـة ـ لم يكن قد مضى على وجـودي في سدة رئاسة الحكومة سوى بضعة أشهر ـ يوم سئلت عن الشوط الذي قطعناه في العمل على تحقيق الوفاق توصلاً إلى الحل المنشود للقضية اللبنانية . فقلت وقد أخذتني حلاوة السجع : « سعينا إلى الوفاق السياسي فاصطدمنا بالنفاق السياسي » .

فثارت على الاثر ثائرة بعض السياسيين عليّ ، وعندما مثلت وحكومتـي أمام مجلس النـواب بعيد منتصف العـام ١٩٧٧ لأؤدي الحسـاب عن حصيلـة ممارستنا السلطات الاشتراعية الاستثنائية التي كانت تتمتع بهـا الحكومـة خلال الأشهر الستة الأولى من عمرها ، ولاطلب تمديد تلك الصلاحيات لفترة مماثلة جديدة ، شنّ عليّ عدد من النواب حملة شعواء . ولما كنت دخيلاً على اللعبـة البرلمانية ، فقد ذهلت لما سمعت من كلام بدا لي لأول وهلة أنه جارح ، إذ أخذ ممثلو الشعب يتعاقبون على الخطابة لابداء رأيهم في الحكومة وفي ممارستها مهامها خلال الفترة السابقة ، فكانوا إلا واحداً منهم يستهلون كلماتهم بانتقاد الحكومة منددين بتقصيرها ومحمّلينها تبعات كل الرزايا التي كانت البلاد ترزح تحتها ، ولم يفت عدداً منهم أن يعرّج على حديثي عن الوفاق والنفاق ليردوا عليه بأقسى

العبارات ، وكأن كلامي ذاك نقر في اعماقهم وتراً حساساً أو لعله اصاب في بعضهم مقتلاً .

شعرت خلال تلك المناقشات أن ما قلته كان زلّة لسان ، وأن مجرد وقوعي فيها كان دليل افتقاري للتجربة السياسية . ولكن ما لبث أن خامرني نقيض هذا الشعور إذ خطر لي أن مجرد انزلاقي في الكلام - والزلل الكلامي من شيم السياسي - ربما كان دليلاً على انني شببت سياسياً على الطوق ، أن صح التعبير .

قال أحدهم يوماً أن الناس احياناً تتعثر بما يعترض سبيلها من نتوءات على الارض ، إلا السياسي فهو كثيراً ما يتعثر بلسانه . فوجدت العزاء للحظة في إيهام نفسي بأن زلة لساني تلك ربما كانت دليل اجتيازي عتبة الخصوصية السياسية .

ومنذ ذلك الحين تكشّف لي الكثير من حقائق اللعبة السياسية في لبنان . مَن ذلك أن بين الرياء والشطارة خطاً دقيقاً يكاد لا يُرى في حالات كثيرة بالعين المجردة ، وأن الرياء في قاموس البعض هو عين الشطارة . وفي هذا يتساوى القدامى والجدد من اساطين السياسة . وإذا كان شعار هؤلاء : « قل الشيء وأعمل لعكسه » ، فإنك لا تسمعهم يجاهرون به ، لإنهم لو فعلوا لكانوا في بوحهم به زلة ليس فيها من الشطارة شيء .

شتان بين الشعار والقصد في السياسة .

كلهم يتغنى بالوطنية وكثرتهم إلى الوثنية اقرب . فإذا كانت الوثنية عبادة الاصنام فالوطنية محبة الاوطان .

تجول بالطرف من حواليك بحثاً عن وطن فتجد أوطاناً أو اشباه أوطان . فلقد تنازعوا الجسد حتى تمزق اشلاء ، وأفرخ على كل شلو منه صنم للعبادة ، لو نطق بحقيقة ما يعتمل في قرارة نفسه لقال : أنا الوطن والوطن أنا . وليس

الحياء ، وإنما الرياء ، هو الذي يثنيه عن قول ذلك .

رفعت الشعارات الخلابة لتكون مؤججاً لروح القتال ، فكانت تلك الشعارات أولى ضحايا الحرب . فلم يبق منها سوى الالفاظ مجوّفة من معانيها الحقيقية .

وحتى لا يقال أن الحرب كلها عبثية ، حيكت حول كل صنم سياسي من الالفاظ قضية . على تعدد هذه القضايا بُني هيكل الوثنية ، وعلى قياس كل قضية بين جمهورها تقاس الوطنية .

هكذا تكاثرت الاعلام وتنوعت الوانها وتكاثرت الأناشيد واختلطت كلماتها وانغامها ، وبقي من بينها علم الاعلام يرفرف ونشيد الاناشيد يسمع . . هو علم الثوابت الوطنية ونشيدها .

كلهم ينادي بوحدة لبنان واستقلاله وسيادته وعروبته وحرياته ، وكلهم يرفع لواء الدعوة للعدالة والمساواة وكرامة الانسان في ظل ديمقراطية صحيحة فاعلة . أما عن خبايا المعاني التي تحجبها الالفاظ ، فحدّث ولا حرج .

يقولون بوحدة لبنان فيما هم يقتسمون ارضه ويفرزون شعبه ويكملون هيكليات السلطة المنفردة في مناطق منه بما تستوجبه من مؤسسات ومرافق وسائر عناصر البنى التحتية المستقلة .

لو اخلصوا في التزامهم وحدة لبنان ، لما رسم كل واحد منهم دائرة حول نفسه وهرع يبني ضمنها مرفأه ومطاره واذاعته وتلفزيونه وشبكة طرقه وجيشه وشرطته الامنية والعسكرية ومحاكمه وادارته ، ناهيك برسومه وضرائبه وصندوقه الوطني وحتى بتجارته وصناعته . وحتى لا تفوته فائتة فأنه احاط نفسه بمكتب تربوي ومكتب عمالي ومكتب للعلاقات الخارجية .

طوق نفسه بتلك الدائرة ليقيم خارج اطار الدولة دويلته . ونظراً لأن شأن الدولة ، أو الدويلة ، لا يستقيم من غير أجهزة مخابرات فلم ينسَ أي منهم ان

ينشيء لنفسه جهازاً للأمن ، وأن يعلن بين الفينة والاخرى على الملأ ما يحقق هذا الجهاز من انجازات خارقة ، فيبلغك من خلال وسائل اعلامه السمعية والبصرية القاء القبض على عصابة لتهريب المخدرات (أما السلاح فمباح) ، أو توقيف سارق سلب امرأة حليها أو رجلاً حفنة من المال (أما فرض الخوات على البيوت والسيارات والسلع الاستهلاكية فحلال) . أو اعدام قاتل سفاح فتك برجل في عملية سطو أو لخلاف على على أفضلية مرور أو في التزاحم على رغيف خبز أو ليتر بنزين أو في ثورة عصبية ، وما اكثر المجانين في لبنان هذه الايام (أما القنص أو القصف العشوائي ، وأما تفجير السيارات المفخخة ، فمرتكبه يبقى طليقاً ، ولا يسأل أحد عن هويته لأن من يرتكب مثل هذه الجنايات لا بد أن يكون عميلاً لعدو الوطن والمجتمع والامة ، فلا حيلة لنا إلا لعنه وشتمه وتخوينه ، هذا إلى جانب استنكار ما فعل بأعنف الالفاظ إذا تجاوز عدد ضحاياه في عملية واحدة عدد اصابع اليدين أو إذا تعذر احصاؤهم تحت انقاض المباني المتهدمة) .

بعبارة نقول : لا يخدم وحدة الوطن من يقتسم بلده مناطق نفوذ فيفرز الأرض والشعب والمؤسسات على قواعد التمييز الفئوي أو الطائفي أو المذهبي . أن من يمارس مثل هذه السياسة إنما يلتقي ، من حيث يريد أو لا يريد ، على خط واحد ومن يعمل على تمزيق لبنان ولايات أو كانتونات أو دويلات .

ولا يخدم سيادة لبنان أو استقلاله من يمد يده إلى دولة اجنبية يتلقى منها المال والسلاح ومعهما الأوامر والتعليمات ، فكيف إذا كانت تلك الدولة في موقع العداوة للبنان ومصيره الوطني والقومي كما هي اسرائيل ، وهي تحتل جزءاً من تراب هذا البلد وتهيمن على اجزاء اخرى منه .

ثم أن السيادة تمارسها بأسم الشعب الواحد سلطة مركزية قادرة ، فمن يعمل على تقليم اظافر هذه السلطة أو استنزاف عافيتها أو يعمل على تبديد تماسك الشعب أو بعثرة ارادته فهو ، من حيث يقصد أو لا يقصد ، يساعد على النيل من سيادة لبنان ويعرّض استقلاله للذوبان والتلاشي .

وما يقال عن سيادة لبنان واستقلاله يقال عن عروبته . فالتزام العروبة لا يكون بمجرد التذكير بعضوية لبنان في جامعة الدول العربية أو المباهاة بأن لبنان كان من المؤسسين للجامعة ومن الموقعين على ميثاقها يوم اعلانه . فلقد سبق لنا ان عرّفنا عروبة لبنان ، في اطار الاحترام لسيادة لبنان واستقلاله ، في إنها تعني دوراً مركباً للبنان في العالم العربي ورسالة ثقافية وحضارية والتزاماً واعياً ومسؤولاً بالقضايا القومية ومصلحة مصيرية مشتركة بينه وبين محيطه العربي . وقلنا أن عروبة لبنان ليست ظاهرة تبعية وإنما هي ، كما يجب أن تكون ، ظاهرة قيادة وريادة في الوطن العربي . لذا فليس من العروبة في شيء التنكر لموجبات التعاون والتضامن والتقارب ، أو الاشاحة عن مقتضيات تعزيز أسباب التكامل ، بين العرب سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً ، وليس منها في شيء الخروج عن جادة المواجهة مع اسرائيل كونها عدو المصير القومي للامة العربية والمصير الوطني لكل شعب من شعوبها .

وكم من المداد أُريق في تسطير المطولات حول اصلاح النظام تجاوباً مع متطلبات العصر من العدالة والمساواة والحرية والديمقراطية وسائر القيم الانسانية . فإذا بالالفاظ قشور بلا لب ، افرغتها من معانيها شعارات التمييز والتفرقة والاستئثار تحت أوهام الحق الذي يراد به باطل ، وأخاديعه .

تراهم يلتقون معك على الشعارات ثم يفترقون عنك على تنفيذها . إنهم مع العدالة ، ولكن أمن المجتمع المسيحي فوق كل اعتبار . وهم مع المساواة ولكن المجتمع اللبناني هو مجتمع تعددي ، والتعددية في مفهومهم تحمل من معاني اللاعدالة واللامساواة ما لا حيلة لك أو لهم فيها . وهم مع الحرية والديمقراطية ولكن ما العمل وهناك اقلية تشكو خوفاً على مصيرها ولا سبيل إلى طمأنتها سوى امتيازات تنفرد بها عن غيرها ضمن النظام يكون لها فعل الضمانات لحاضرها ومستقبلها . فإذا كانت تلك الامتيازات تحدّ من تكافؤ الفرص بين ابناء الشعب الواحد ، فما حيلة تلك الفئة في ذلك ؟

ثم يطلعون عليك بحجة الحجج متسائلين : وما علاقة الازمة واسبابها بالعدالة والمساواة أو تكافؤ الفرص والحرية أو الديمقراطية أو أي حق من حقوق الانسان في وطنه . أليست الازمة اللبنانية نتيجة مؤامرة اقليمية دولية لتصفية القضية الفلسطينية عن طريق توطين الفلسطينيين حيث يقيمون، بدءاً بلبنان؟ ألم تبدأ معالم الازمة في الظهور والتفّجر مع جنوح المنظمات الفلسطينية في لبنان إلى التصرف وكأنها تشكل دولة داخل الدولة ؟ لا بل اكثر من ذلك ، ألم تنفجر الأزمة على ساحة الصدام في الواقع بين الفلسطينيين وبعض اللبنانيين الذين يحتكرون لانفسهم دون غيرهم صفة حماة الديار اللبنانية ؟ ويطلقون رصاصة الرحمة على أملك في تحقيق الاصلاح والمستقبل الافضل عن طريق الحوار والوفاق ، الذي لا علاقة له بالنفاق ، إذ يردفون قولهم : إذا كان الهدف اخراج لبنان من ازمته ، فما جدوى اصلاح النظام وتحقيق العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص ، إلى جانب الحرية والديمقراطية ، ما دمنا نسلّم بأن ازمة لبنان مرتبطة بأزمة الشرق الاوسط ، وأن لا فكاك بينهما ؟ وإذا ضاقت بهم الحيلة قالوا بالامن قبل الوفاق . ولا يثنيهم قول بأن الوفاق يمكن أن يكون مفتاح الأمن .

هو الحق الذي يراد به باطل . فعندما تسمع مثل هذا الكلام فانك لا تتمالك إلا أن تتخيّل الوطن اللبناني في منظارهم شجرة يريدون أن يكون الجميع في ريّها من عرقهم ودمهم سواسية وأن يكون لهم وحدهم فيؤها وثمرها وحتى تغريد العصافير بين أفنانها .

ولم ينفع معهم قول حتى الآن بأن الاصلاح يمكن أن يكون مدخلاً للتخفيف من غلواء الترابط بين ازمة لبنان وازمة المنطقة أن لم يكن الفصل بينهما ميسور المنال في الوقت الحاضر ، أو أن الاصلاح من شأنه سد الثغرات في جدران البيت اللبناني التي تتسرب منها رياح التفجير من الخارج وأنه بالتالي يمكن أن يشكل منطلقاً لتعزيز مقومات صمود اللبنانيين إلى ان يحين أوان الحل الجذري لقضية لبنان مترافقاً والحل العادل لقضية الشرق الاوسط ، أو أن اهداف

الاصلاح هي حق بديهي مشروع للانسان اللبناني في وطنه بصرف النظر عن طبيعة الازمة أو حلقات تشاكبها مع معطيات الازمة الاقليمية أو العلاقات الدولية .

وفجأة تغدو كل الاعتبارات وكل الاعتراضات باطلة ، ويثوب الجميع إلى منطق الحوار تحقيقاً للوفاق . فيقف المواطن المسكين مشدوهاً وفي قرارة ذاته يتساءل : أهذا اكتشاف جديد ؟ أما كان في استطاعة جهابذة السياسة التوصل إلى هذه النتيجة قبل الآن ، أي قبل مصرع عشرات الالوف من الابرياء على مسرح الحرب العبثية ، وقبل تهجير مئات الالوف من الآمنين في شتى المناطق اللبنانية ، وقبل تدمير كل هذه الاحياء والقرى والتجمعات السكنية ومعها الكثير من المرافق الحيوية ، وقبل أن يدب الوهن في أوصال الاقتصاد الوطني إلى حد دفع المجتمع إلى شفير الهاوية وقبل أن تلتهم المحنة أرزاق الناس ومقومات معيشتهم من خلال التضخم الجامح والعملة المتدهورة والبطالة المستشرية .

أما ان يكونوا قد بدّلوا تفكيرهم أو انقلبوا على مواقفهم ، فهذا ما يستحقون عليه الشكر والثناء . وتبديل المواقف في أي حال لا يضير رجل السياسة . فالتغيير في قاموس السياسة اللبنانية هو عين الشجاعة ، وهو دليل القوة . ذلك لان القوي فقط يستطيع أن يتجاهل ما يفكر الناس فيه ، والقوي فقط لا يخضع للحساب . أما الذين دفعوا الثمن ، وهم كثرة اللبنانيين ، فلهم رحمة ربهم .

بيروت في ١٩٨٦/٨/٢٥ .